

جنون التأسلم

سيكولوجية التدين في عصر العولمة

الاربعاء، 8 آب 2012 الموافق 20 رمضان 1433

* د. موسى الحسيني

ليس الغاية من اختيار هذا العنوان اثاره انتباه القارئ، أو حتى الرغبة في تسفيه ظاهرة التأسلم أو التقليل من أهميتها بالعكس ان المطلوب فهم حقيقة هذه الظاهرة، واستخدام الباحث لمصطلح الجنون هنا هو استخدام لمصطلح علمي تماما يعبر عن حقيقة ظاهرة تؤثر الملاحظة المنهجية الى انها حالة جنون حقيقية، أو حالة مرضية من حالات الاضطراب السايكولوجي أو الأمراض النفسية التي تعني الخروج على ما هو مقبول من السلوك المتعارف عليه انه سلوك سوي.

الدراسة غير معنية بالمسلمين الذي يتعبدون الله ايماناً وتقوى خوفاً من عقابه أو طمعا في مثوبته يوم القيامة. المقصود هنا هو استخدام الدين الإسلامي لتحقيق أغراض دنيوية من خلال تسييسه واعتماده في اللعبة السياسية كوسيلة لتحقيق اهداف دنيوية لا دخل لها بالدين. قد يكون غرورا أو زهو مبرر أو غير مبرر الادعاء بأنني كنت أول باحث عربي، قدّم دراسة منهجية عن سيكولوجيا التدين، مبكرا منذ عام 1983، كجزء من مستلزمات نيل شهادة دبلوم الاختصاص أو الدبلوم العالي في علم النفس الاجتماعي، من مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية والسياسية، أشهر كليات العلوم الانسانية في العالم، تابعة لجامعة لندن. عنوان البحث بالانكليزية هو: «الأسباب النفسية للثورة الدينية في الوطن العربي والشرق الاوسط.

عثرت في أوائل التسعينات على بحث مطبوع في 1986، للدكتور رفيق حبيب تحت عنوان «سيكولوجيا التدين عند الاقباط. سنقدم هنا ملخص عن البحث بما يعكس الفكرة الاساسية للدراسة على أمل أن تنهيا الفرصة الكافية لنشر البحث الاصلي كاملا مع القائمة الكاملة بالمصادر التي اعتمدها الباحث. كان وقت اجراء البحث الخاص بي هو وقت ما يعرف بالثورة الإيرانية في بداية عهدها وآمال الناس بها ما زالت كبيرة من خلال ما تطرحه من شعارات حول تحرير فلسطين، ومحاربة الاستكبار العالمي، فحفزت، وأشدد انها كانت حافزاً مشجعاً ولم تكن السبب في ظهور الحركات المتأسلمة التي لها أسبابها الخاصة بالنسبة للعرب كما سنأتي على ذلك.

الحركات المتأسلمة في مصر كانت قد نشطت بعد توجهات الانفتاح الاستسلامية التي بدأ السادات بيديها في طريق الصلح مع الكيان الصهيوني والتبعية للغرب في أواسط السبعينات والتي تكلفت بزيارته المشؤومة للقدس. وكما كشفت جيهان السادات بان اعتماده هذه السياسة كانت رغبته لاستخدام هذه الحركات لمواجهة التيار الناصري.

في افغانستان - لا في فلسطين - سمعنا لأول مرة عن الجهاد والمجاهدين ضد احتلال الكفار السوفييت لأراض إسلامية، لنكتشف فيما بعد انها مجرد لعبة اميركية.

شدتني كل تلك المظاهر، وكانت لديّ ملاحظات شخصية قديمة حول بعض الاشخاص الذين رأيت كيف أنهم يتحولون بشكل فجائي للتدين على أثر صدمة نفسية قوية تصادفهم في حياتهم كفقْد قريب أو حبيب أو الخيبة والفشل في تحقيق رغبة أو طموح كبير، كل ذلك دفعني لاختيار موضوع سيكولوجيا التدين أو علم نفس التدين. وقد جاءت كل الدراسات التي تطرقت أو تناولت الظاهرة، فيما بعد، لتؤكد صحة الفرضيات التي وضعتها وصحة النتائج التي توصلت لها.

نعم ان حالة التأسلم التي بدأت تحتاح الوطن العربي هي حالة جنون جماعي تحتاح أوطاننا، لا دخل لها بالدين أو الايمان بالله وطلب مرضاته وثنائه، أو الخوف من عقابه في الآخرة. كي نحدد بالضبط مستوى الثقة بالقول بأن المصطلح هو تعبير عن ظاهرة واقعية تتخذ دراستها أو استخدام المصطلح في توصيفها صفة الصدق المنطقي والثبات كدلالات على صحة فرضيات البحث ودقتها رغم ان الباحث هنا أو في البحث الأساسي اعتمد على الملاحظة الشخصية ولم يستخدم أي اختبار لاستحالته في مثل هكذا دراسات.

علينا التوقف لتعريف بُعدي المصطلح: الجنون أو الاضطراب العقلي أو الاضطراب النفسي السلوكي كما يتفق على تعريفه الاختصاصيون النفسيون، هو حالة من عدم السواء، أو الشذوذ عما هو مألوف من انماط سلوكية سائدة أو متفق عليها اجتماعيا أو تلك التي تنظمها مجموعة قواعد قانونية متفق على أنها تمثل نماذج للسلوك أو رد الفعل السلوكي الطبيعي تجاه مثيرات او أفعال محددة في مجتمع ما.

ترتبط هذه الانماط السلوكية الشاذة عادة بسلسلة من الانفعالات وحالات الشد أو الضغط النفسي والهباج العصبي، أو أي اشكال أخرى من الانفعالات التي يكتسب بها السلوك صفات شاذة تعكس اشكال من الاضطرابات الوظيفية للشخصية. لذلك قيل عن الغضب الزائد على انه جنون مؤقت.

لا يندرج ضمن حالات الشذوذ هذه، الاختلاف في وجهات النظر عما هو مألوف في مجتمع ما، التي تعتمد على المحاجة العقلانية المنطقية، حول العقائد الدينية أو السياسية، ما لم يكن هذا الاختلاف مرتباً بشحنات انفعالية تؤثر على الاداء الوظيفي والسلوكي في العلاقات مع الآخرين، وعموم الاوضاع

للشخصية.

ووفق لهذا المفهوم المتفق عليه للجنون، لا يمكن النظر لحالة الاندفاع الجماهيري نحو التأسلم الا على انها حالة هستيريا جماعية، لا علاقة لها بالعقل ولا الايمان بالدين. وهناك اتفاق أيضا بين المختصين النفسانيين ان حالات الهستيريا أو الانفعالات النفسية الشديدة قد تنتقل أحيانا بالعدوى كما هي الامراض العضوية الأخرى.

ونشدد هنا على ان ما نراه هو تأسلم وليس تدين، وهو الذي يمثل البعد الآخر للبحث فهو لا يشبه ولا يرتبط بالاسلام الذي نعرفه، الا بالأقوال. بل هو حركات جماعية أو فردية تتبنى اسم الإسلام أو مفاهيم إسلامية، نتيجة لاضطرابات نفسية تعاني منها شخصية هؤلاء المتأسلمين، دون أن نرى اثر لقيم الإسلام واخلقياته في سلوكياتهم.

ان الإسلام الذي نعرفه نحن عامة المسلمين بما يتضمنه من مبادئ وقيم تحددتها تعاليم الدين الاسلامي على انها معيار للعمل الصالح المرضي عليه من الخالق، وما يعتبر من الحسنات التي يمكن أن يثاب عليها الانسان في الحياة الآخرة، كالامانة والوفاء، الصدق، ومعاملة الآخرين بالحسنى، رفض السرقة، والخيانة، والزنى، القتل، وغيرها من القيم المعروفة الأخرى التي يتمسك بها العرب أو بقية مواطني الدول العربية من غير العرب، مسلمين أو أديان أخرى بما فيهم العلمانيين. لعل غالبية المتأسلمين يقفون بعيدا عنها بمسافات واسعة قد تختلف من شخص لآخر. فالتأسلم وكما عرفناه في أعلاه: هو استخدام الدين الاسلامي لتحقيق اغراض دنيوية من خلال تسييسه واعتماده في اللعبة السياسية كوسيلة لتحقيق أهداف دنيوية واشباع رغبات شخصية لا دخل لها بالدين ، فهو دين جديد تماما غاياته الحياة الدنيا ولا علاقة له بالآخرة أو الايمان المزعوم بالخالق.

كي لا يبدو هذا القول بمظهر التشويه والنقد المفرض، ولمعرفة دلالات ما نقول به ومدى تطابقه مع ما يجري في الواقع اتمنى من القارئ أن يلاحظ ما يلي من الخصائص السلوكية لهؤلاء المتأسلمين: لو راقبنا أي من هؤلاء المتأسلمين في حياتهم اليومية العامة لوجدنا ان من الاجحاف الشك بصدق ما يمارسونه من عبادات كالصلاة والصوم أو قراءة القران، لكنهم يمارسونها عادة بطريقة أقرب للاستعراض، ويتطرف بعضهم بإضافة عبارات توحى لسامعها طبيعة الشخصية المتشددة ، فهي متدنية بدرجة من الشدة تختلف عن ما هو معروف، يرددها المتأسلم، ويكون عادة ما اختارها من تلقاء نفسه أو تقليدا لشيخ أو إمام، يشابهه في الحالة النفسية. كتلك العبارات الزائدة التي يضيفونها في حالتهم الركوع والسجود.

ان اداء العبادات عند المتأسلمين مصحوبة في أغلب الاحيان بما يشبه الاستعراض او الرغبة في أن يراهم

الآخرون. يتشارك في ظاهرة الاستعراض هذه المتدين كحالة تأسلم، مع بعض النصابين الذين يستخدمون الممارسات العبادية بغية التظاهر بسلامة نواياهم، وتقواهم وخوفهم من الله كي يصلوا من خلال تلك الصورة التي يتظاهرون بها، الى ما ينونه مسبقاً تحقيقه من اغراض أو مكاسب يطمحون لكسبها من الآخر. الا ان النصاب يمارس تلك الطقوس فقط في اماكن محددة يتوقع أن يراه فيها من ينوي التأثير بهم. يختلف بذلك عن المتأسلم الذي يمارس طقوسه بحضور أو غياب الآخر. ما يهمنا هنا ليس استخدام الدين كجزء من عدة النصب، بل نحن هنا مهتمين بالتأسلم كحالة سيكولوجية مرضية. لعل طريقة كي الجبهة بحجر ساخن ليوحي المتأسلم للناس حجم ما يقضيه من وقت في الصلاة خاصة الشباب منهم ما هي الا علامة من العلامات التي تظهر اندساس النصاب في حركات التأسلم، أو هو يجمع الصفتين بوقت واحد، رغم ان صفة الاندساس هي الأرجح. وهي دلالة أخرى على الميل للاستعراض. هذا النموذج من النصابين يمثل إستثناء من الدراسة، فالنصب هنا يمثل طريقة عيش غير سوية أيضا اختارها ليحقق اغراضه الدنيوية من خلال استثمار توجهات التأسلم، فهو مريض لأسباب أخرى لا علاقة لها بما نوصفه من سيكولوجيا التدين. وحالته تمثل حالة تخريب وانحطاط اخلاقي احيانا أو ما يعرف باضطراب الشخصية. (لمن يرغب بالتعرف على سايكولوجيا النصاب يمكنه الرجوع الى كتاب الدكتور رزق إبراهيم ليلة، وهي بنفس الاسم أي سيكولوجيا النصاب، القاهرة :مكتبة سعيد رافت، بدون تاريخ.) عموما لا أحد يمتلك الحق في الشك بصحة الممارسات العبادية للمتأسلم . لكن لو انتقلنا للجانب الآخر من الدين أو ما يسميه فقهاء الدين بالمعاملات. وهي مجموعة من القوانين أو القواعد أو الضوابط التي تحدد سلوك المسلم في تعامله مع الآخرين بما يجعل هذا السلوك مَرْضِي من الله ولا يخالف الشريعة، وهي تشكل جزء أساسي من جوهر الدين مثلها مثل العبادات. فما لم يلتزم المسلم بالسلوك المنضبط وفقا للقيم التي حددها الخالق يعني ان هذا السلوك يمثل حالة خروج على إرادة الله وطاعته، ويحسب بحساب المعاصي بنفس حسابات ترك اداء أحد العبادات. وملاحظة المتأسلم على العموم سنرى ما يثير الدهشة من غياب الخوف من الله أو التمسك بالقيم التي أراد لنا أن نتعامل وفقها مع الآخرين. أي ان المتأسلم بقدر ما يظهره أو يبدو عليه من صدق في الجانب العبادي أو الطقوسي، هو انسان مختلف بشكل ملحوظ في الجاني المعاملاتي من الدين.

سنجد ان المتأسلم الذي ربما كان صادقا وهو يبكي خشوعا عند الصلاة أو قراءة القران، لا يتورع عن الكذب، والسرقة والاحتيال في تعامله مع الآخرين، عادة تميل الغالبية منهم لسرقة الأموال العامة، لو سألته كيف يجوز له هذا، سيفسرها لك على انها أموال مجهولة المالك وهو مسلم محتاج وهذه اموال المسلمين. أو سيقول انه ما فعل ذلك الا ليرجع الحق لأهله وأنه سيبدلها في اعمال البر والخير واعادتها

لأصحابها من فقراء المسلمين، وعندما يستلم اموالا من طرف أو جهة اجنبية يقول لك انها خراج أخذه من كفار. وغير ذلك من الاعذار الجاهزة التي ربما يعزرها بأية قرآنية او حديث من أحاديث أبو هريرة. هو حتى لا يستحي ولا يتقي الله في أن يسرقك من خلال العمل او التجارة، ليقول ان الله حرم الربا وحل البيع والتجارة. لنتمترج هنا صفتي الاحتيال والسرقة. وفي أي مكان في العالم صار بناء جامع أو تعمیر جامع أو أي مؤسسة دينية يمثل أفضل مشروع تجاري مريح ينقل صاحبه أو أصحابه الى مستوى آخر من العيش المترف.

رأيت متدينين ملتزمين بتعصب بالدعوة أو التظاهر بالدين لا يتورعوا عن السرقة في الدانمارك وفرنسا قبل أن تنتبه المحلات التجارية لذلك وتتشدد من اساليب الحماية، عندما تسألهم مستغربا كيف يجوز لهم ذلك، يبررها راسا انها خراج أو أموال اعداء الإسلام أو الكفار، وانه في دار حرب وغير ذلك من الأمور مع انه يستلم كل المخصصات التي تقدمها بلاد الكفار هذه للاجئين. هو حتى لا يتردد من ممارسة الزنا والتغيرير بالفتيات، تحت مسميات مختلفة، المتعة، والمسيار، وزواج السفر، والزواج المدني، وملك اليمين. ويتطرف بعضهم ليعمم الفساد والزنا باسم فتاوى حديثة أو عصرية. ان فتوى مثل تحريم جلوس البنت مع أبيها على انفراد لم تأتي من فراغ، فلو لم يكن هذا الذي أعطى الفتوة قد راودته نفسه على ابنته لما وردت الفكرة في خاطره. فتاوى كهذه تقدم نموذجا لما عرف في علم النفس التحليلي بزلات اللسان أو القلم وما تعكسه عن رغبات لاشعورية كامنه في نفس الانسان. مثلها فرض الحجاب بطريقة النقاب أو الأكياس السوداء التي لا يظهر فيها من المرأة غير شيخ أسود يتمشى، هي نموذج آخر ليس فقط لخوف الرجل على امراته وبنته من الرجال الآخرين، الذين ينظر لهم بمنظار نفسه هو على انهم شياطين تعبيراً عن الحجم التي تحتله روح الشيطان في داخله (على ان هناك أسباب أخرى لهذا الحجاب، تتعلق بالمرأة والرجل أيضا، نؤجل الحديث عنها منعا للاطالة). مع ان هذا المتأسلم لا يتردد يوميا عن تذكيرنا بسيرة امهاتنا (امهات المسلمين أو بالسيدة زينب)، التي لم تكن فيهن من تحجبت على شاكلة اكياس الفحم هذه. بمن اقتدى إذاً، ومن أين جاءته فكرة عزل المرأة عن الحياة بهذه الطريقة؟! عندما يصرح ما يسمى بزعيم الثورة الليبية في أول خطاب له احتفالا بانجاز ثورته بجواز الزواج من 4 نساء كانجاز وحيد لم يتطرق لأي شيء آخر غيره، يعكس هذا حجم انشغال المتأسلم بالجنس وحجم ما يمثله الجنس من اهتمامات طاغية على عقله، تختزل وتستحق التضحية بأي شيء استقلال البلد او الحفاظ على مصالحه المهم النساء الاربع، كما تختزل الدين كله باستباحة المرأة. يكفي ما نراه الآن من سلوك فاضح في التبعية للغرب والتعامل معه على انه ايمان بالديمقراطية وحقوق الانسان، وبهذه القيم لا بالاسلام، أصبح من الممكن انقاذ لبشرية من شرورها. بعد أن هرجوا الدنيا

بإدعائهم عن الشيطان الأكبر، والصليبية وغيرها من الأمور التي كانوا يتهمون الحركات الأخرى بالتواطؤ مع أعداء الله والإسلام، بسبب حديثهم عن الديمقراطية. إن المتأسلم يبيح لنفسه كل ما يحرمه على الآخرين.

وأخيراً ما نشاهده اليوم من عمليات قتل الآخرين وقتل النفس أحياناً بالمتفجرات وسط التجمعات البشرية لإيقاع أكبر الأذى بالمسلمين (المرتدين بالنسبة له) للحاق بالجنة والزواج من الحور العين وشرب الخمر من أنهارها. وآخر طريقة للإبداع بالقتل لأعداء الإسلام والمرتدين من المسلمين هي الذبح بالسكين مع الصراخ بأعلى الأصوات تكبيراً وحمداً للباري على ما حققوه من نصر على أعداء الإسلام، ومكثهم من ذبحهم..!؟

مع أن أهم منظر من منظري التأسلم أبو علي المودودي يصف هذه الطريقة من القتل بالطريقة التالية: «وهو ما كان ذائعا في الجاهلية وحرمة الإسلام تحريماً شديداً وقضى عليه قضاء مبرماً» خلال حديثه على مظالم معاوية وسلوكياته التي تمثل خروجاً على الإسلام ومنه «حكاية قطع الرؤوس» (الخلافة والمُلك، ص: 115) ويقول أيضاً في الصفحة 117 «فالسؤال هل أباح الإسلام فعل ذلك بكافر من الكفار.»

حجة المتأسلمين في ذلك أنهم يقيمون حدود الله، وعند العودة لكتاب الله الكريم نجد أن الله (جل جلاله) لم يوكل أحداً لإجبار الناس على أن يكونوا مؤمنين، ولا حتى نبيه الكريم. وأن تزييف القول بالوكالة أو النيابة عن الخالق لإجبار الناس على الإيمان ليس إلا تحريفاً للدين والأوامر الإلهية. يقول تعالى اسمه: (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) «يونس، 99»، (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) «البقرة، 252». «التفسير النفسي للظاهرة:

يمكن القول بثبات وإيمان من خلال تلك الدراسة الصغيرة التي أشرت لها في أعلاه ومن خلال الملاحظة المستمرة، والباحث يمثل هذه الأمور لا يمتلك من أدوات البحث غير الملاحظة، فلا أحد من هؤلاء المسلمين يقبل أن يخضع للدراسة أو التحليل، وهذه أيضاً تعود لخاصية أخرى من خصائص سيكولوجية التأسلم تميز هؤلاء المتدينين هو اعتقادهم أنهم بتمسكهم الظاهر بالدين استوعبوا كل الحقيقة المطلقة والمعرفة الكاملة وكل من عداهم أو لا يتقبل آرائهم فهو ليس إلا جاهل يستحق الدعاء في أحسن الأحوال. إن التأسلم في جوهره ليس إلا تعبير ومظهر لمجموعة من الأعراض المرضية والعقد النفسية التي تشكلت بسبب الصدمات والاحداث التي تعرّض لها المجتمع العربي في كافة اقطار الوطن العربي، وكان لها انعكاسات مباشرة على حياته اليومية المعاشية أو الأمنية وحتى ما يشكل خلافاً أو تصادم مع معتقدات كان

يؤمن بها وذات علاقة بما يعرف بعلم النفس بتقدير الذات. وهذا ما سنفصله في الجزء القادم.